الدور الإيراني ومستقبل العلاقات السُّنّية الشِّيعية

يحيى بوزيدي*

ملخص: أحدثت الثورة الإيرانية سنة 1979 حالة تثوير في الوسط الشِّيعي، تجلت آثارها في التصدعات الاجتماعية التي عمّقت المشكلات البنيوية للدول العربية. وبعدما تراجعت مستويات عنف التنظيمات الشِّيعية المرتبطة بإيران خلال تسعينيات القرن الماضي مع تراجع صدى الزخم الثوري بوفاة الخميني، ودخول تلك التنظيمات في تسويات سياسية مع الأنظمة العربية- عاد العنف الطائفي مع الانتفاضات الشعبية في 2011، وقبلها مع الاحتلال الأمريكي للعراق في 2003، فشمل نطاقًا جغرافيًّا أكبر يمتد على مستوى المنطقة كلها، وبشكل أكثر حدة، مفجّرًا حالة من الصراع بين السنة والشيعة تتزايد طرديًّا مع مستوى التدخل الإيراني.

* جامعة حسيبة بن بوعلي، الجزائر.

Iran's Role and the Future of the Sunni-Shiite Relations

YAHIA BOUZIDI*

ABSTRACT: The aftermath of the Iranian Revolution in 1979 triggered a tense atmosphere amongst the Shiite community that shook the social structure and deepened the problem in the Arab world. After the level of violence conducted by Shiite organizations started to decrease in the 90s with the death of Al Khomeini, and having those organizations compromise with the Arab governments. Sectarian violence returned to the region with the American invasion of Iraq in 2003 and the Arab uprising in 2011. The conflict between Shiite and Sunni keeps on escalating as Iran's interference in the region increases.

* University of Hassiba Benbouali, Algeria.

رؤية تركية
2016 - (5/2)
214 - 195

تباينت المواقف الإيرانية من الانتفاضات الشعبية العربية جغرافيًّا وزمنيًّا، ففي بداياتها لم تتوقف إيران عند التأييد السياسي والإعلامي للمظاهرات في تونس ومصر فقط؛ بل حاولت تصوير ما يجري على أنه امتداد للثورة الإيرانية في 1979

شكّل العامل الخارجي أحد الأبعاد الأساسية الموجهة للتحولات الجارية في المنطقة العربية منذ 2011؛ إلى درجة دفعت بعض المتابعين إلى اعتبار ما يحدث مجرد مؤامرة حيكت خيوطها بين القوى الدولية، وبغض النظر عن مدى موضوعية هذه القراءة، فإنه لا يمكن نفي تأثير القوى الدولية في مسار التحولات الاجتماعية والسياسية الحالية، خصوصًا بالنسبة لدول إقليمية لها روابط كبيرة مع المنطقة كإيران، وقد تجلى ذلك منذ 1979، برفعها شعار تصدير الثورة، الذي تكرر صداه مرة أخرى في 2011، من خلال محاولة ربط ما يجري عربيًّا بما حدث فيها قبل ثلاثة عقود، غير أن مواقف إيران هذه تغيرت بعدما انتقلت الحركات الاحتجاجية إلى سوريا، ليظهر دور آخر للجمهورية الإسلامية كشف عمق ارتباطها بالمجتمعات العربية، ممثلة في المكون الشِّيعي الذي تماهى واندمج جل قواه السياسية معها.

مواقف إيران من الانتفاضات العربية

تباينت المواقف الإيرانية من الانتفاضات الشعبية العربية جغرافيًّا وزمنيًّا، ففي بداياتها لم تتوقف إيران عند التأييد السياسي والإعلامي للمظاهرات في تونس ومصر فقط؛ بل حاولت تصوير ما يجري على أنه امتداد للثورة الإيرانية في 1979، وبشرت بأنظمة إسلامية ستنتج عنها، إذ عدّت مصير الرئيس زين العابدين بن علي مشابهًا لمصير شاه إيران، ولا سيّما بعد رفض فرنسا أهم حليف له استقباله، كما فعلت الولايات المتحدة مع الشاه، إضافة إلى الفساد العائلي للأسرة الحاكمة ونفوذها، كما كانت أسرة الشاه أيضًا.[1] وفي مصر دخلت إيران حلبة الصراع السياسي، وسعى مسؤولوها لتوجيه الأنظار إلى أن التغيير الجاري أمر طبيعي ونتيجة منطقية -وإن كانت متأخرة- لما جرى في 1979، عندما انتصرت أول ثورة شعبية كاسحة في العصر الحديث على أحد أعتى الأنظمة، وأقوى أعمدة السياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.[2] وهنا على عكس الثورة التونسية لم يكتف النظام الإيراني بمجرد المقارنة بين الثورتين؛ بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما عدّها امتدادًا لثورته وحمّلها شعارات إسلامية، ففي خطبة الجمعة للمرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية "علي خامنئي" الذي غاب عنها لأكثر من سبعة أشهر، وكان إلقاؤها بالعربية لا بالفارسية لافتًا- وصف الثورة في تونس والاحتجاجات الشعبية في مصر بأنها "بوادر يقظة إسلامية" في العالم، مستوحاة من الثورة الإسلامية الإيرانية عام 1979. ودعا الشعب المصري إلى مواصلة انتفاضته حتى "إقامة نظام شعبي يقوم على الديانة الإسلامية". وكان موقعه الإلكتروني أعاد قبل أيام من ذلك نشر تصريحات أدلى بها خامنئي في 2010 أمام وفد فلسطيني أعرب فيها عن ثقته بأن "شرقًا أوسطًا جديدًا سيتشكل، وسيكون إسلاميًّا".[3]

ولم تخرج تصريحات الرئيس محمود أحمدي نجاد عن السياق نفسه، إذ قال في هذا الخصوص: إنّ الشّعب التونسي أسقط الديكتاتورية بشعارات إسلامية مطالبة بالعدالة. مؤكّدًا أنّه يسعى إلى إقامة الأحكام الإسلامية، ولن يستسلم مرّةً أخرى للغرب. وأوصى في الختام التونسيين بالتوكّل على الله والإخلاص، وعدم نسيان الأحكام الإلهية، والتفريط في المبادئ الإسلامية، لأنها سبب النصر.[4]

واستمرت المواقف الإيرانية في هذا الاتجاه وتزايدت، خصوصًا مع بداية مظاهرات مشابهة في اليمن، ومملكة البحرين نظمتها المعارضة الشِّيعية، مطالبة بإسقاط النظام، حيث تزايد التأييد الإيراني لتلك المظاهرات، كما انتقدت لاحقًا تدخل قوات درع الجزيرة هناك، واتهمتها بقتل المتظاهرين. حدث لاحقًا تحول في الموقف الإيراني مع بداية المظاهرات في سوريا الحليف الإستراتيجي لها، فقد كان الموقف الإيراني من الثورة السورية ثابتًا في دعم النظام، ومتدرجًا فيما يخص الانتفاضة السورية من التجاهل إلى اتهام المتظاهرين، وإلقاء اللوم على المؤامرة الخارجية، وتبني وجهة نظر النظام السوري كليًّا[5]؛ حيث عدّت ما يجري مؤامرة هدفها إسقاط نظام الأسد الذي يقف في وجه المشروع الصهيو أمريكي. ولم تتوقف عند هذا المستوى؛ بل تدخلت عسكريًّا من خلال الحرس الثوري، وحزب الله اللبناني، وميليشيات شيعية عراقية لمساندة النظام، بعد تحول الحركات الاحتجاجية إلى العنف المسلح.

وبعد مرور خمس سنوات على الانتفاضات الشعبية في المنطقة العربية ظهر دور جلي للشيعة في الدول التي يوجدون فيها، حيث سيطر الحوثيون على السلطة في اليمن بتحالفهم مع الرئيس السابق علي عبد الله صالح، وقد رأت المملكة العربية السعودية في هذه السيطرة خطرًا عليها، انطلاقًا من العلاقة الوطيدة التي تربط الجماعة بإيران. كما انتهى الصراع في سوريا إلى تصنيف طائفي يُختصَر في نظام سياسي ينتمي إلى الأقلية العلوية يمارس القتل والتهجير ضد الأغلبية السُّنّية، ويسعى إلى تأسيس دويلة علوية إذا لم يستطع الاستمرار في المحافظة على السلطة، وتقف إيران إلى جانبه في هذا المسعى بكل قوتها، إضافة إلى حزب الله اللبناني والقوى الشِّيعية التي تسيطر على السلطة في العراق. هذه الأخيرة لم يستطع صراعها المستمر مع مختلف مكونات العملية السياسية الخروج عن التصنيف الطائفي؛ وبخاصة مع دعوة المرجعية الدينية إلى تأسيس الحشد الشعبي لمواجهة تنظيم الدولة الإسلامية بعد سيطرته على الموصل، واتهام تلك الميليشيات بارتكاب العديد من المجازر والتهجير بحق أهل السنة في مناطقهم، وفي كل هذا لم تنفك الاتهامات الإشارة إلى الدور الإيراني فيما يجري. وللوقوف عند جذور المشكلة وحيثياتها ومدى ارتباطها بإيران لابد من الإشارة إلى كيفية نشوء العلاقة بينها وبين المكون الشِّيعي العربي وهو ما سنتناوله في المحور الآتي.

مظاهر التأثير الإيراني على المكون الشِّيعي العربي

ترتبط "صحوة الشيعة"[6] بالثورة الإيرانية في 1979 التي أسقطت نظام الشاه، وتشكّل في إثرها نظام جديد "الجمهورية الإسلامية"، حيث اعتلت المؤسسة الدينية السلطة بقيادة المرجع الديني آية الله العظمى "روح الله الخميني" الذي طور نظرية جديدة في الفكر السياسي الشِّيعي، تتلخص في ضرورة تقلّد رجال الدين الشيعة الاثني عشرية السلطة السياسية نيابة عن الإمام الغائب الثاني عشر في العقيدة الاثني عشرية تمهيدًا لظهوره، وتأسيس الدولة المهدوية التي تسود العالم حينها، وهي ما تسمى بنظرية "ولاية الفقيه"[7]، بدل نظرية "الانتظار" التي تقصر دور المرجعيات الشِّيعية في الأمور الفقهية من دون المشاركة في المؤسسات السياسية التي تعدّها غير شرعية، لكونها تمارس صلاحيات الإمام الغائب.

وقد تأثرت المجتمعات الشِّيعية بهذه الثورة؛ كما أن النظام الجديد في إيران انتهج في سياسته الخارجية مبدأ "تصدير الثورة"، الذي ينص على محاولة استنساخ النموذج الإيراني في كل الدول العربية والإسلامية.[8] وكان هذا الشعار مسؤولًا عن توتير العلاقات الإيرانية-الخليجية بصفة خاصة على مدار الثمانينيات، بعدما عُدّت اضطرابات الشيعة في السعودية والكويت والبحرين من آثاره، إلا أنه تعرض للمراجعة في التسعينيات على الأقل فيما يتعلق بوسائل تطبيقه.[9]

برز -في هذا السياق- الكثير من التنظيمات الشِّيعية الموالية لإيران، التي تحمل الأفكار والمعتقدات نفسها، أبرزها حزب الله في لبنان، وأحزاب أخرى مشابهة له في كل الدول التي

بها تجمعات شيعية.[10] فبدلت مواقفها وأولوياتها من كونها قوى سياسية حليفة للأنظمة السياسية، إلى قوى ثورية راغبة في إقامة نظام إسلامي يشبه النظام الإيراني، أو في نشر الديمقراطية وإتمام الإصلاح السياسي.[11] فقد أسس انتصار الثورة الإسلامية الإيرانية لانطلاق الكثير من الدعوات على ضفاف الخليج، أو ما أطلق عليه لاحقًا الهلال الشِّيعي؛ لمحاولة الحصول على ما يراه شيعة المنطقة حقوقًا لهم، خصوصًا مع رؤيتهم أحد أعتى النظم التسلطية وأقواها في المنطقة، وأكثرها ارتباطًا بالولايات المتحدة- يتداعى تحت صيحات الإيرانيين بقيادة دينية. وبحسب ما يرى غسان الشهابي: "أتى هذا مع التراجع الكبير للقوى الوطنية والقومية واليسارية في المنطقة؛ لأسباب ذاتية في هذه التنظيمات، وموضوعية، ونتيجة أيضًا لتغير الكثير من التحالفات الدولية التي قلّصت وحددت حجم المعونات والإمدادات والمساعدات التي كان يغدقها المعسكر الشرقي على هذه التنظيمات، في الوقت الذي تنامت فيه القوى الدينية بشكل عام، والإسلامية في المنطقة بأسرها".[12] ومن أهم التنظيمات حزب الله اللبناني الذي أعلن في أول وثيقة سياسية له صدرت في 1985 أنه سيكون تحت أوامر الفقيه الحكيمة والعادلة، آية الله الخميني.[13] وفي العراق حزب الدعوة الذي ارتبط نشاطه الشديد مع فورة الثورة الإيرانية، قبيل انتصارها وبُعيدها، وقد طرح الحزب آية الله الخميني بوصفه وليًّا للفقيه، وأخذ يتحدث عن ثورة ودولة إسلامية في العراق.[14] والحوثيون في اليمن الذين استولوا على تنظيم الشباب المؤمن ووجهوه نحو الأطروحة الإيرانية.[15] وحزب الله الحجاز في المملكة العربية السعودية الذي كان هدفه إسقاط نظام العائلة الحاكمة وتأسيس دولة إسلامية.[16]

تسبب الدور السياسي المتزايد للشيعة في شروخ عمودية -بين المكوِّن الشِّيعي والسلطة السياسية، فدخلت الأنظمة الخليجية في مواجهة مع إيران من خلال دعمها لنظام صدام حسين في الحرب بين الطرفين التي وَظّف فيها كلاهما البعد الديني لتسويغ مواقفه- وأخرى أفقية على المستوى المجتمعي

باتت الدول التي توجد بها أقليات شيعية تنظر إليها على أنها أحد أهم العوامل التي تهدد وحدتها الترابية. وقد تباينت سياسات كل دولة تجاه المكون الشِّيعي، لكنها لم تخرج بشكل عام عن محاولات الاحتواء بمختلف الوسائل

من أجل ذلك باتت الدول التي توجد بها أقليات شيعية تنظر إليها على أنها أحد أهم العوامل التي تهدد وحدتها الترابية. وقد تباينت سياسات كل دولة تجاه المكون الشِّيعي، لكنها لم تخرج بشكل عام عن محاولات الاحتواء بمختلف الوسائل، ولاسيّما من خلال إشراكها في العملية السياسية لثنيها عن العمل المسلح، وقد نجحت هذه السياسات نسبيًّا في دول مجلس التعاون الخليجي، وبشكل خاص في الكويت والبحرين، حيث توجد انتخابات وأحزاب سياسة.

وبعد إخفاق التنظيمات الشِّيعية في إسقاط الأنظمة في الثمانينيات ومع تراجع الزخم الثوري الإيراني في التسعينيات؛ وجدت في المشاركة السياسية فرصة لتحقيق أهدافها من خلال التمدد داخل الدولة، وتوجيه صنع القرار فيها من دون أن تكون لذلك تبعات سلبية عليها، وقد نجح حزب الله اللبناني في تحقيق ذلك إلى حد كبير جدًّا، بينما أخفقت المحاولات المشابهة من طرف الحوثيين في اليمن.

تداعيات الصعود الشِّيعي على العلاقات السُّنّية الشِّيعية

تسبب الدور السياسي المتزايد للشيعة في شروخ عمودية -بين المكوِّن الشِّيعي والسلطة السياسية، فدخلت الأنظمة الخليجية في مواجهة مع إيران من خلال دعمها لنظام صدام حسين في الحرب بين الطرفين التي وَظَّف فيها كلاهما البعد الديني لتسويغ مواقفه- وأخرى أفقية على المستوى المجتمعي، فقد أفرز الواقع الطائفي الداخلي والضغوط الإقليمية والدولية التي استهدفت محاصرة واحتواء مشروع الجمهورية الإسلامية الإيرانية مبكرًا خطابًا طائفيًّا عبّر عن نفسه في مناسبات عديدة رغم الإنكار الرسمي لمثل هذا الخطاب، إلا أنه انعكس في شكل ممارسات سياسية على المستويين الداخلي والإقليمي.[17] حيث رأت بعض القوى السُّنّية أن النشاط السياسي الشِّيعي ينعكس سلبًا عليها، لكونه يستهدف معتقداتها، كما أن سقوط الأنظمة (السُّنّية) سيعني تبديلها بأخرى شيعية ستضيق عليها؛ وتمنعها من ممارسة شعائرها، لذلك دخلت مرجعيات الطرفين هي الأخرى في صراع من نوع آخر تجاوز الحدود الوطنية، وفي المجال الشِّيعي كان لتأثير العلاقة بين المرجعية الشِّيعية في إيران ونظيراتها في الدول العربية التي تعود جذورها إلى العهد الصفوي- دور في ذلك، ويمكن التمثيل لهذه العلاقة بثلاثة نماذج مهمة: الإمام الخميني، والإمام موسى الصدر، وآية الله الشيرازي.[18]

استمر الوضع الشِّيعي في التقدم تحت غطاء المقاومة والممانعة اللتين كانت إيران تقودهما، واستطاعت بواسطته تجاوز كل المآخذ السياسية في حق شيعة العراق المتعاونين مع الاحتلال الأمريكي

وقد برز الملف الشِّيعي بشكل كبير جدًّا عقب الاحتلال الأمريكي للعراق في 2003، وسيطرة القوى الشيعية -التي ترتبط بعلاقات تاريخية مع إيران- على السلطة هناك؛ إذ مكنتها علاقاتها الوطيدة مع المجلس الأعلى للثورة الإسلامية العراقي وحزب الدعوة- من تعزيز نفوذها فيه، ولاسيّما مع نسجها علاقات مع تنظيمات جديدة -على غرار التيار الصدري- تميل إلى الانتهازية -على عكس الحزبين السابقين- وتسليحها جيش المهدي التابع له، ورغم اختلاف المرجع الديني آية الله السيستاني مع الخميني في نظرية الحكم إلا أن هناك شكلًا من التوافق بينهما، حيث عمل الطرفان على مراعاة بعضهما بعضًا، مع رفض السيستاني انتقاد إيران، وتسليم طهران بدوره فيما يتعلق بتمكين الشِّيعة المطرد في العراق[19]. وقد أدى ذلك إلى تفجر الصراع الطائفي نتيجة لممارسات الميليشيات المسلحة التابعة لتلك القوى، مثل جيش المهدي ومنظمة بدر، ولاحقًا

عصائب أهل الحق، في ظل سعي إيراني بعد سقوط نظام صدام حسين إلى الضغط لإضعاف السُّنة، وتمكين الشِّيعة من السلطة في العراق، مع إبقاء البلد ضعيفًا مقسّمًا.[20]

سخّرت إيران كل الوسائل المتاحة لخدمة حلفائها الإستراتيجيين في المنطقة، الذين كان أغلبهم ينتمون إلى الطائفة الشِّيعية، وقد تراوحت بين الديني والسياسي والإعلامي والعسكري.

ولم يمنع وصول تلك القوى الشِّيعية إلى السلطة وتمثيلها للدولة العراقية إلى تحول جذري في أفكارها السياسية؛ فالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق بعد الاحتلال الأمريكي بالرغم من تخليه عن شعار الجمهورية الإسلامية الذي كان يرفعه في الثمانينيات- إلا أنه لم يخرج من الإطار الطائفي برفعه شعار "المظلومية الشِّيعية"، كما أنه ظل من جهة أخرى مرتبطًا بالمرجعية الإيرانية، ممثلة في خامنئي بعد الخميني بحكم التقليد، وبذلك بقي ملزمًا باستشارة الفقيه (خامنئي) بكل ما يتخذ من أحكام.[21] ولصعوبة الانفكاك عن المنظومة الإيرانية سياسيًّا، استبدل المجلس بمرجعية إيران مرجعية إيرانية مناظرة، متمثلة في مرجعية السيد علي السيستاني، بوصفه نوعًا من المعادل الموضوعي الضمني لتبعية تاريخية عسرة الانفكاك.[22] وبالمجمل فقد رتبت إيران البيت الشِّيعي، وعملت على توحيده، وبخاصة في أثناء العملية الانتخابية لضمان سيطرة القرار الشِّيعي على المجلس النيابي العراقي، كما أنها لم تقطع علاقاتها مع الأطراف الشِّيعية التي تعاونت مع الولايات المتحدة، ومع الخيار السياسي في ظل الاحتلال، بل عمدت إلى عدم ترك هذه القوى والأحزاب في الدائرة الأمريكية فقط.[23]

استمر الوضع الشِّيعي في التقدم تحت غطاء المقاومة والممانعة اللتين كانت إيران تقودهما، واستطاعت بواسطته تجاوز كل المآخذ السياسية في حق شيعة العراق المتعاونين مع الاحتلال الأمريكي، وكان حزب الله في واجهة الحرب الإعلامية مستثمرًا إنجازاته على الحدود اللبنانية الإسرائيلية؛ وقدرته على مواجهة الاحتلال الصهيوني في حرب 2006؛ وحاول الاستفادة من دعمه لبعض القوى السُّنّية، وأهمها حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين (حماس). وزاد زخمه مع بداية الانتفاضات الشعبية في 2011، وما ترتب عنها من تحولات باستغلال شيعة البحرين الأوضاع لإسقاط النظام الملكي الذي ينتمي إلى السُّنة، واستثمار الحوثيين في الظروف التي نتجت عن الثورة الشبابية، واستحوذوا على السلطة بالتحالف مع الرئيس السابق علي عبد الله صالح. ثم الأزمة السورية والاصطفاف الشِّيعي مع إيران إلى جانبها، وما أصبح متداولًا عن أبعاد طائفية للصراع، تتمثل في الخلفية الدينية لعائلة الأسد، والتحالف "النُّصيري"-الشِّيعي من خلال الدعم اللوجيستي والعسكري الذي تقدمه إيران وحزب الله وبعض الميليشيات العراقية لنظام الأسد. وإمكانيات انقسام سوريا، وبروز دويلة علوية موالية لإيران. ثم تمدد الحوثيين في اليمن، وسيطرتهم على السلطة هناك، وتفجر الصراع، وبخاصة بعد التدخل العسكري السعودي دعمًا للرئيس اليمني عبد ربه منصور هادي.

الآليات التي وظفتها إيران للتأثير في الانتفاضات العربية من خلال الشِّيعة

سـخّرت إيران كل الوسـائل المتاحة لخدمة حلفائها الإسـتراتيجيين في المنطقة، الذين كان أغلبهم ينتمون إلى الطائفة الشِّيعية، وقد تراوحت بين الديني والسياسي والإعلامي والعسكري.

دينيّاً

تنطلق إيران في سياسـتها الخارجية من محدِّدين أساسـيين، هما: القومية الفارسـية، والعقيدة الدينية الشِّيعية الاثني عشرية، وبغضّ النظر عن الجدل حول أيهما تابع للثاني، فإن الأكيد هو إكمال أحدهما الآخر في تحقيق مصالحها. وفضلًا عن وجود مادة في الدستور الإيراني تنص على أن تكون الإمامـة مذهب الدولة[24]، وأن يكون رئيس الجمهورية منتسـبًا له[25] –اللـذان يدللان على محورية البعد الديني في النظام الإيراني– فإن فكرة "ولاية الفقيه" و"الدولة المهدوية" جعلت من إيران تعدّ نفسها راعيًا دوليًّا لشؤون الشِّيعة في العالم، وتمارس شكلًا من "الحماية" لهم في المنطقة العربية، نظرًا لتدخلهـا في الكثير من القضايا الداخلية للدول، وكان آخرها موقفها من إعـدام المملكة العربية السعودية رجل الديني الشِّيعي نمر باقر النمر، الذي ترتب عنه أزمة انتهت إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

ومن العوامل المسـاعدة على التمثيل الإيراني للشِّـيعة عالميًّا وجود المركز الديني الشِّـيعي الثاني في (قم)، وانحدار الكثير من المراجع الشِّـيعية من أصول إيرانية، أو دراستهم فيها، ومن ثَـمّ التبعية، سـواء المباشرة أو غـير المباشرة، وبخاصة في ظـل الموارد المالية الهائلـة التي تملكها الدولة، التي تفرض قدرًا من تبعية رجال الدين الشيعة لها. وقد حققت الجمهورية الإسلامية نجاحًـا كبـيرًا في ربط نفسـها بمصير رجـال الدين الشـيعة ومجتمعهم، إذ ينظـر إلى أي تراجع لسلطة إيران على أنه يمكن أن يؤثر في معادلة القوى في المنطقة ضد المجتمع الشِّيعي.[26] ورجال الدين الشِّـيعة نـادرًا ما خالفوا الجمهورية الإسـلامية في مسـائل السياسـة الخارجية، فكونهم

تنظيـمًا دينيًّـا اقتصاديًّا لا يعني تجاوزهـم أيًّا من الخطوط الحمراء لجمهوريـة إيران. وأي رجل دين يعيّرها يمكن أن يتعرض للقمع الوحشي إذا كان يعيش داخل إيران، أو التهميش إذا كان يعيش خارجها.[27]

ويمكن التدليل على هذا الترابط بمواقف المرجع الشِّـيعي الأبرز "علي السيسـتاني" الذي يؤمن بالرؤية التقليدية المنغرسـة في الفقه الشِّـيعي، المتعلقة بوجوب دعم حاكم شـيعي (إمام) للإقليم طالما يحمي مصالح المجتمع الشِّـيعي. ويشـير مهدي خلجي إلى أن: "الكثير من علماء الشـيعة يشـكك في مصداقية خامنئي الدينية، ولكن ليس هناك شـك في أنه يترأس السـلطة في إيران، وهي أهم بلد شـيعي في العالم. وبالتالي فإن أي محاولة لتقويض سـلطة خامنئي كحاكم لبلد شـيعي تعد غير مشروعة دينيا."[28] ويضيف الباحث نفسـه أن السيسـتاني أثبت أنه –على الرغـم من معارضتـه لمفهوم ولاية الفقيـه– لم يكن ضارًّا في معارضته للجمهورية الإسـلامية الإيرانية في السـنوات التسـع الماضية. فلم يتحدث أو يتصرف على نحو يمكن تفسـيره أنه تحدٍّ لها، ونادرًا ما كانت أفكاره حول الحكومة العراقية تتعارض مع أفكار الجمهورية الإسلامية.[29]

سياسيّاً

شـكلت إيـران غطـاء دبلوماسـيًا للقوى الشِّـيعية، فهـي لا تفتأ تدافـع عنهم في مختلف المحافـل الدوليـة، وفي إطـار علاقاتها مع القـوى الإقليميـة والدولية؛ بغـض النظر عن مدى تداخلـه مـع مصالحها الوطنية الخاصة، إذ لا تتوقف إدانة مسـؤوليها لأي عمل مضاد لمصالح الشـيعة حتى وإن كان في سـياق داخلي محض. ومن الأمثلة على ذلك مواقفها المؤيدة للشـيعة في البحريـن وإدانتها لممارسـات النظام بحقهم، واسـتنكار الحرب السـعودية ضد الحوثيين في اليمن، وقبل ذلك الدفاع عن حزب الله اللبناني، وليس آخرها مسـاندة نظام الأسـد في أزمته، ومشاركتها في المؤتمرات الدولية التي عقدت بشأن هذه الأزمة، وسعيها الحثيث لضمان خدمة مخرجاتها لوجهة نظر النظام السوري ومصالحه التي تتقاطع بطبيعة الحال مع مصالحها.[30]

إعلاميّاً

تمتلـك إيران شـبكة إعلامية كبيرة جدًّا ناطقة بالعربيـة جندتها لخدمة مشروعها والدفاع عن الشـيعة، إضافة إلى شـبكة إعلاميـة عربية تضم عددًا من القنـوات والصحف والإذاعات والمحللين.[31] وهي وإن تنوعت في مداخلها فإنها تعبّر من خلال خطها الافتتاحي عن مواقف إيران ورؤيتها لمشـكلاته. ففي البحرين أشـارت وزيرة شؤون الإعلام في أكثر من تصريح إلى أن إيران تسـخّر ما مجموعـه 19 قناة تلفزيونية للهجوم على البحرين بشـكل مكثف، وترويج الشـائعات والأكاذيب على حد وصفها.[32] وفي سـوريا تهدف إلى تجريد الانتفاضة السورية من صدقيتهـا بربطهـا بأطراف أخرى، وتخويف الأقليـات من التطرف القادم برفع شـعار "الفتنة الطائفيـة"، وترسـيخ نظرية المؤامرة وإرباك الوضع العـام.[33] والتزمت قناة المنار التابعة لحزب الله بشـكل كامل بالرواية الرسـمية للنظام السـوري التي تتهم الجماعات المسـلحة الإسـلامية

السُّنّية المدعومة خارجيًّا؛ وأطلق أمينه العام حسن نصر الله على أي سوري يعبّر عن عدم الرضا عن رزمة الإصلاحات الشحيحة التي قدّمها الأسد بأنه مؤيد لإسرائيل وأنه عدو.[34]

اقتصاديّاً

تخصص إيران قدرًا من مواردها الاقتصادية لدعم الحركات المؤيدة لها في المنطقة، وقد تزايد حجم الدعم المادي مع بداية الأزمات، فهناك ميزانية ثابتة لحزب الله اللبناني تأتيه من إيران سنويًّا، كما لم يتوقف دعمها لحليفها السوري، إذ صرف النظام الإيراني في منتصف 2011 -بتوجيهات مباشرة من المرشد الأعلى علي خامنئي- ثلاثة مليارات دولار عاجلة ومن دون أي شروط للنظام السوري؛ لدعمه في مواجهة الثورة الشعبية، إضافة إلى منحة 290 ألف برميل نفط يوميًّا مجانًا، كما ضغطت على حكومة المالكي الحليفة لها في بغداد لتزويد دمشق بنحو عشرة مليارات دولار.[35]

عسكريّاً

انحصر الدعم الإيراني سابقًا للقوى التابعة لها في توفير الأسلحة، والمعدات اللوجيستية، وتدريب العناصر في معسكرات الحرس الثوري في إيران، وقد استمر ذلك حتى 2011، ففي بداية الانتفاضة الشعبية تلقى النظام السوري الدعم العسكري من نظيره الإيراني الذي أمدّه بأسلحة وعتاد للمراقبة والقتال، وتكنولوجيا مراقبة: البريد الإلكتروني، وأجهزة الهواتف المحمولة، ووسائل التواصل الاجتماعي، كما تحدثت تقارير عن إرسالها خبراء لمواجهة الانتفاضات الشعبية.[36] ولكن مع تصاعد الأزمة السورية والمأزق الوجودي الذي بات يعاني منه نظام الأسد تطور ذلك الدعم إلى مده بالمقاتلين من الحرس الثوري الذين لا تتوقف وسائل الإعلام الإيرانية عن نعيهم بشكل شبه يومي، وقد أكد قادة "فيلق القدس" التابع للحرس الثوري الإيراني وجود عناصر من الفيلق في سوريا.[37] وكشف اللواء محمد علي جعفري عن وجود ما يقارب من 200 ألف مقاتل مرتبطين بالحرس الثوري الإيراني، موجودين في خمس دول، هي: سوريا والعراق واليمن وباكستان وأفغانستان.[38]

ووجهت إيران حزب الله اللبناني إلى الانخراط في القتال إلى جانب الأسد، إضافة إلى جلب المرتزقة من الميليشيات الشِّيعية من أفغانستان وباكستان والعراق. ومن أشهر الميليشيات العراقية الشِّيعية المقاتلة في سوريا لواء أبي الفضل العباس، وهو قوة عسكرية شيعية أُنشِئت في 2012، ومهمّة هذا اللواء الرئيسة -بحسب زعمه- حماية مرقد السيدة زينب في دمشق، بعد انتشار تهديدات ضد المرقد خلال الاحتجاجات السورية 2011-2012، ومقاتلو هذا اللواء من العراق ويعتقد انتماؤهم للتيار الصدري، وكذلك من لبنان وينتمون إلى حزب الله، والكثير منهم من سكان دمشق العراقيين الذين هربوا من العراق بعد أحداث العنف الطائفي في 2006.[39] وقد أقر رئيس الوزراء العراقي السابق "نوري المالكي" بمشاركة ميليشيات عراقية خارج إرادة الدولة في النزاع الدائر في سوريا، وأوضح وزير خارجيته "هوشيار

زيباري" وقيادات شيعية بارزة باشتراك مقاتلين عراقيين إلى جانب نظام الأسد، بينما أشار وزير النقل العراقي ورئيس "منظمة بدر" الجناح العسكري لـ"المجلس الأعلى الإسلامي"، هادي العامري في مقابلة مع وكالة رويترز للأنباء إلى أن المتطوعين العراقيين يذهبون إلى سوريا عبر بيروت، أو ينتقلون جوًّا من بغداد إلى دمشق.[40]

وجهت إيران حزب الله اللبناني إلى الانخراط في القتال إلى جانب الأسد، إضافة إلى جلب المرتزقة من الميليشيات الشِّيعية من أفغانستان وباكستان والعراق. ومن أشهر الميليشيات العراقية الشِّيعية المقاتلة في سوريا لواء أبي الفضل العباس

وتتهم البحرين حزب الله بأنه يدخل بحرينيين إلى معسكرات تدريب على حمل السلاح، وصنع المتفجرات، والتخابر، وغيرها من الأنشطة الرامية إلى نشر الفوضى المؤدية إلى زعزعة النظام والانقلاب عليه. وكانت قد قدمت في ذلك الحين احتجاجًا رسميًّا إلى الحكومة اللبنانية لإعلان حزب الله عرضه المساعدة على المحتجين. وألقت القبض في 23 مارس 2011 على خمسة من العمال اللبنانيين المقيمين بالبحرين للاشتباه في صلتهم بحزب الله في لبنان.[41]

أما في اليمن فإن حجم التدخل الإيراني غير خاف، وقد أُعلِن عن ضبط ست خلايا تجسس إيرانية، فضلًا عن وجود أدلة على قيام إيران بتوريد أسلحة للحوثيين خلال السنوات الماضية.[42]

مستقبل العلاقات السُّنّية-الشِّيعة

تكشف بؤر التوتر في المنطقة العربية حجمًا كبيرًا من الصدع في خطوط التماس الطائفي من العراق إلى سوريا ولبنان واليمن، وإن نذر معاودة انفجارها في الدول الخليجية أكثر من واردة، بل طال الأمر دولًا سُنية أخرى لا توجد بها أقليات شيعية، فقد اتهمت بعض الحكومات والمؤسسات والشخصيات الدينية في عديد من الأقطار العربية إيران بقيادة حركة تشيّع تستهدف تغيير معتقدات بعض المغرر بهم من أبناء هذه المجتمعات. ومن المؤشرات على احتمالات اتساع الصراع الطائفي في حالة استمرار الدور الإيراني بنفس التوجهات السياسية – ما يأتي:

1. تضييق حلقة الأطراف المحايدة

حاولت نخب كثيرة نفي وجود صراع طائفي، وسعت إلى توحيد الرؤى الدينية والسياسية لمواجهة التحديات التي تحيط بالأمة الإسلامية، وأبرز الأنشطة في هذا المجال مشروع التقريب بين المذاهب الذي كان يرعاه الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين، كما كانت الحركات السُّنّية تعلن تأييدها لإيران وتدافع عنها، غير أنه مع تطور الحركات الاحتجاجية في المنطقة واستفحال العنف المسلح – اتسعت رقعة الاصطفافات على أسس طائفية؛ بدخول بعض الأطراف التي غالبًا ما كان موقفها محايدًا أو معارضًا لفكرة الصراع الطائفي، فإضافة إلى مواقف الشيخ يوسف القرضاوي من حركة

التشيع قبل 2011، ثم مواقفه القوية ضد إيران وحزب الله بعدها، دخلت مؤسسة الأزهر على الخط أيضًا، وأصدرت الكثير من التصريحات التي تدين إيران ونشاطها التبشيري، فضلًا عن مواقفها السياسية، وبعد تصريحات لمقتدى الصدر عن التشيع في الجزائر صدرت مواقف من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تستهجن التبشير الطائفي، الذي يعتمد على التدجيل، والتضليل، لتغيير أحكام التنزيل، والتشويش على معتقدات الناس، ببث الفتنة، وزرع الأقاويل، ونبش مآثر الصحابة، وأمهات المؤمنين، باللجوء إلى سوء التأويل. وانتقدت مقتدى الصدر زعيم المجموعة المسلحة في العراق الذي يغمد سلاح المقاومة ضد الغزاة، ويشهر سلاح المساومة ضد إخوانه السُّنيين، المسالمين الآمنين المطمئنين في بلادهم الجزائر، فيعمل على زرع الفتنة الطائفية بين صفوفهم، ليستعديهم على قومهم، ويؤلبهم ضد إجماع شعبهم، و"يبشر" باسم الطائفية المقيتة، بوجود شيعة مضطهدين بيننا.[43] كما طفت إلى السطح بعض مؤشرات الصراع المجتمعي، إذ أضحت عاشوراء موسمًا تتصاعد فيه المواجهة مع المتشيعين، حيث يزداد نشاط السلفيين في هذه الفترة للتحذير من خطر التشيع والطقوس التي يمارسها هؤلاء فيها، والتي تعد انحرافًا عن الدين الإسلامي.[44]

ومن أبرز العوامل التي دفعت هذه القوى إلى الانحياز إلى جماعاتها الدينية انهيار أو تراجع –على الأقل– التوافق السياسي بين حماس وحزب الله حول أولوية مواجهة العدو الصهيوني، إضافة إلى دور الأخير في الأزمة السورية، حيث وضع ذاته، من خلال وقوفه إلى جانب نظام الأسد ومؤيديه العلويين وإيران ورفع السلاح ضد الثوار من السُّنة– في وسط صراع طائفي ليست له علاقة بسبب وجوده؛ أي بمقاومة الاحتلال الإسرائيلي.[45]

تصدع و انهيار الدول

باتت دول كثيرة مهددة بالانهيار على أساس إثني و/ أو طائفي، لعوامل داخلية تتقاطع مع تجسيد مصالح قوى إقليمية ودولية، وفي مقدمة هذه الدول العراق ولبنان وسوريا.

أ-العراق

تتجه الانقسامات الطائفية في العراق إلى التعمق أكثر، وبات انهيار الدولة أو تقسيمها من السيناريوهات غير المستبعدة، إذ يعيش النظام السياسي وليد الاحتلال الأمريكي أزمة عميقة يُعبّر عنها امتداد تنظيم الدولة الإسلامية على مساحات شاسعة منه؛ وتهديده في مرحلة من المراحل العاصمة بغداد، فضلًا عن ضعف المؤسسة العسكرية، وسيطرة الميليشيات الشِّيعية الطائفية (الحشد الشعبي) على المشهد، إلى درجة أصبحت فيها موازية أو أكبر من مؤسسة الجيش؛ حيث أوكلت إليها مهمة استرجاع الأراضي التي سيطر عليها التنظيم، خاصة مع وجود غطاء من المرجعية الدينية التي أفتت بتأسيسها.

وتعود أسباب ذلك بحسب فاضل الربيعي إلى تلازم صعود أدوار قوى تفعيل المسألة الطائفية على مستوى المجتمع (الأحزاب الدينية الشِّيعية الكبرى، مثل المجلس الإسلامي

تتجه الانقسامات الطائفية في العراق إلى التعمق أكثر، وبات انهيار الدولة أو تقسيمها من السيناريوهات غير المستبعدة، إذ يعيش النظام السياسي وليد الاحتلال الأمريكي أزمة عميقة يُعبّر عنها امتداد تنظيم الدولة الإسلامية على مساحات شاسعة منه

الأعلى، وحزب الدعوة، والتيار الصدري، وجماعات صغيرة أخرى مؤثرة، مثل: حزب الفضيلة، وحركة العمل الإسلامي)، مع صعود أدوار قوى وجماعات وأحزاب سُنية، مثل: (الحزب الإسلامي، وجبهة التوافق، وهيئة علماء المسلمين، وجماعات صغيرة أخرى). وكان صعود هذه القوى مجتمعة يتلازم مع ضعف قدرة التيارات القومية والعلمانية والليبرالية وتلاشيها. لكن صعود أدوار هذه القوى، -وبعضها قوى تاريخية- ساعدها على إعادة تأسيس نفسها، وتمكنت من استعادة مكانتها بوصفها أطرافًا فاعلة، لم يكن لها أدنى تأثير في إحداث التوازن الاجتماعي-السياسي بين الطائفتين. وفي الغالب، يعزى هذا الخلل في القوة والتوازن إلى العامل الإقليمي، إذ يشكو أهل السنة بمرارة من النفوذ الإيراني بوصفه مصدرًا أساسًا من مصادر هيمنة الأحزاب الشِّيعية على الحياة العامة والمرافق الحكومية.[46] إذ كان لهيمنة القوى الرئيسة التي تملك وشائج وروابط قديمة بطهران على مرافق الدولة ومؤسساتها وأجهزتها، ومسارعتها لاحتكار السلطة والنفوذ والثروة- أكبر الأثر في حدوث خلل في توازن القوى الاجتماعية، وفي خلق نمط من التفاوت في قوة الجماعات المحلية وقدرتها على التحكم في مسارات الأحداث وتطورها.[47]

ب-لبنان

يشكّل لبنان أحد أكثر الدول عرضة للتقسيم والانهيار؛ نظرًا لخبرته التاريخية في مجال الحروب الأهلية، وهشاشة بنية نظامه السياسي القائم على أساس المحاصصة الطائفية، وربما المانع الوحيد الذي يحول دون ذلك صغر مساحته الجغرافية، التي تدفع القوى السياسية للسعي إلى السيطرة على السلطة لا الاستقلال. وهو أكثر البلدان تأثرًا بالأزمة السورية، إذ أصبح عرضة لموجات عاتية من الاضطراب الأمني والسياسي، يحصرها شفيق شقير في ثلاثة مخاطر داهمة، أولها: تصدع سياسة النأي بالنفس وفق التفسير اللبناني، ثانيها: تصدع مصداقية الجيش اللبناني، والثالثة: بوادر صعود "طائفة سياسية حاكمة"؛ بسبب تنامي دور حزب الله الأمني وتوسعه إلى درجة قد لا تحتملها القوى اللبنانية الأخرى.[48] ويشير ماثيو بخصوص هذا الخطر الأخير إلى أن: "أمينه العام حسن نصر الله فشل في محاولة تحييد لبنان من الصراع بين الشيعة اللبنانيين والسنة في سوريا. فبإرساله مقاتليه إلى سوريا وضع مصالحه كجماعة قبل مصالح لبنان كدولة، وهو ما يقف ضد محاولاته الطويلة لتصوير ذاته كجماعة لبنانية أولًا وقبل كل شيء. كما فشلت محاولاته الدائمة للتقليل من أهمية هويته الطائفية وتأييده لإيران، بسبب رفضه للالتزام بالموقف الرسمي للحكومة اللبنانية بعدم التدخل في سوريا. وعلى النقيض من ذلك، يقوض دعم الحزب الاستباقي للنظام العلوي الوحشي ضد المعارضة السُّنّية السورية السائدة؛ صورة الحزب التي كوّنها عبر فترة طويلة كحركة مقاومة لبنانية."[49]

وتكشف تداعيات الأزمة السورية عن وضع في لبنان شبيه بالعراق، حيث تراجع دور الدولة لصالح الميليشيات بعدما عجزت عن تحقيق الأمن، فبعد أن أصبحت معاقل حزب الله في الضاحية الجنوبية وبعلبك وسواهما عرضة للاستهداف من "جماعات سورية متشددة" بسلسلة من التفجيرات، شاع ظهور مسلحيه في الشوارع، وممارسة أدوار أمنية متقدمة، في ظل وجود الجيش وبقية الأجهزة الأمنية اللبنانية الأخرى، كإقامة حواجز عسكرية وأمنية على مداخل الضاحية الجنوبية، والتحقيق مع الناس، والتحقق من تحركاتهم، وشاع مع ذلك الحديث عمّا يسمى "الأمن الذاتي"، وحق الناس في أن تتولى أمنها بنفسها بسبب عجز الدولة عن حماية مواطنيها."[50] وقد باتت علامات انتقال آثار الصراع في سورية إلى لبنان واضحة للعيان؛ فقد علقت المناطق الحدودية في الصراع، مع تدفق اللاجئين والهجمات ضد القرى اللبنانية الحدودية من هذا الطرف أو ذاك، بحسب الولاءات السياسية لسكان تلك القرى.[51]

يشكّل لبنان أحد أكثر الدول عرضة للتقسيم والانهيار؛ نظرًا لخبرته التاريخية في مجال الحروب الأهلية، وهشاشة بنية نظامه السياسي القائم على أساس المحاصصة الطائفية، وربما المانع الوحيد الذي يحول دون ذلك صغر مساحته الجغرافية

ت- سوريا

دخلت الأزمة السورية عامها السادس، وهذا يدلّل على استعصاء الحلول السياسية والأمنية، حيث عجزت الأطراف الداخلية المتصارعة عن حسم الحرب لصالحها، وأصبح

خيـار تقسـيم البلد واردًا جـدًّا، في ظل عمل ممنهج لتفريـغ المناطق ذات الأغلبيـة العلوية من السـنة الموجودين فيهـا، وقد تلجأ الأطـراف الدولية والإقليمية إلى الخطة "ب"، أي تأسـيس دويلة علوية على السـاحل في حالة اسـتحالة اسـتمرار نظام الأسـد، وما يعزز هذا الطرح أنه مـن المسـتبعد أن تقبل إيـران أي انكفـاء لدورها في سـورية، لأنها تدرك أنه سـيفضي لهزيمتها في المنطقـة، وانحسـار دورها الإقليمي الذي عملت عليه وتسـعى لتحقيقـه.[52] وإذا ما انتهت الأزمة إلى هذا الحل فإن تقسيم سوريا ولبنان يصبح مسألة وقت فقط؛ لكون استمرار التدهور والانقسـام الطائفي ينبئ بواقعٍ تسـتمر فيه الاضطرابات الأهلية بشكل لا تستطيع معه آليات الضبط الاجتماعي الهشـة أصلًا في عدد من المناطق أن تمنعها، والقتال في سـورية يلقي أصداء العنف الطائفي بين "الشيعة والسنة" في العراق خلال العقد الماضي، كما يأتي في وقت يشعر فيه "الشيعة أنهم تحت الحصار من لبنان إلى باكستان.[53]

3. تصاعد الحركات الدينية المتطرفة المسلحة السُّنّية والشِّيعية

فسـحت التحـولات الجارية المجـال للحركات الدينية المتطرفة للنشـاط، وأضحت تجد حاضنـة اجتماعية كبيرة؛ نظرًا لعجز الدولة عن تحقيق أبسـط شروط الوجود (الأمن). وهناك تركيز على الحركات السُّـنّية وإغفال نظيرتها الشِّيعية؛ التي يكشف الواقع أنها من أسباب تزايد الأولى، والفارق الأهم أنها تجد دعمًا قويًّا من المرجعية الدينية، والسلطتين السياسيتين الإيرانية والعراقية، فقد أدت الاختلالات في النظام السـياسي العراقي الذي نشـأ بعد الغزو الأميركي عام 2003 القائم على أساس تمثيل الهويات المكونة للبلاد وتحاصصها في السلطة- إلى إطلاق العنان للقوى المتطرفة داخل كل مكون، ومكنتها من احتلال مساحات واسعة تتحرك فيها على خطوط الانقسـام المجتمعي والسـياسي.[54] وارتبط العنف الطائفي المتصاعد بإخفاق الحكومة والقوى السياسية العراقية في التعامل مع المشاعر السائدة في الوسط السُّني، وأبرزها التهميش ووجود سياسات تمييزية طائفية تتبعها الحكومة العراقية والقوى الأمنية.[55] فسياسات المالكي الأمنية العنيفة والمدعومة من الولايات المتحدة الأمريكية وإيران في الوقت ذاته دفعت القوى السُّـنّية المطالِبـة بالعدالة والديمقراطية والحرية ومحاربة الفسـاد والاسـتبداد إلى الاقتناع بعدم جدوى المطالبات السـلمية، والانتقال إلى المقاومة العسـكرية في صد الهجوم، وهو ما استثمره تنظيـم "داعش" لتوسـيع نفوذه، ومـلء الفراغ، والدخول في تحالفـات موضوعية مضمرة مع القوى المسلحة السُّنّية في مواجهة عدو مشترك يمثله الحلف المالكي-الأمريكي.[56]

ومما يؤجج الصراع الطائفي ويزيد من انتشار الحركات الدينية المتطرفة دخول "المقدسات الدينيـة" مجال التوظيف فيه، حيث لم يقتصر الخطاب الجهادي على الجانب "السُّـني" فقط؛ بل تبنـى بعض مؤيدي النظـام هذا الخطاب (حلفاء النظام المحسـوبون على إيـران وحزب الله)، واسـتخدمت هذه القوى الحجة الجهادية لتبرير تدخلها.[57] فبالنسـبة للشـيعة تستحوذ المراقد المقدسة لأهل البيت مكانة مرموقة وسامية في الفكر الشِّيعي، وتعدّ من أهم أسس بناء العقيدة

الشِّـيعية، لذلك سـيكون من المحتّم أن تكون درجة وضوح موقف الجهاد الشِّـيعي في سورية أكبر.[58] مع العلم أن منطقة السـيدة زينب تعدّ جزيرة "شـيعية" ضمن بحر من البلدات والمدن "السُّنّية". وقد استعمل موضوع مقام السيدة زينب لاستقطاب المزيد من التعاطف الشِّيعي مع نظام الأسـد، بحيث يتم إظهار المعركة في سوريا، وكأنها معركة القضاء على الشيعة ورموزهم الدينية، وهذا أمر جذاب بالنسـبة للبسـطاء من الناس، ويخلق لديهم نوعًا من الحماس والحمية للمشاركة في الحرب للدفاع عن هذه الرموز.[59]

وقد أدى اعتماد النظام على المقاتلين العلويين والشـيعة الأجانب إلى نشـوء رواية شـائعة على وجه الخصوص في معاقل المعارضة السُّنّية تسوّي الصراع ضد قوات الحكومة بالجهاد ضد المحتل، ورغم أن معظم نشـطاء التيار الرئيس في المعارضة وسياسـييها وقادة الجيش السوري الحر أحجموا عن استعمال مصطلح الجهاد، إلا أنهم مع عدة مجموعات سلفية مستقلة ظهرت بدءًا من يناير 2012 وما بعدها- اعتنقوا المبدأ صراحة. وطوّرت كل المجموعات الراديكالية، بدرجات متفاوتة منظورًا راديكاليًّا مميزًا يصور معركتها على أنها صراع ديني ضد نظام "علوي طائفي"، فنشـأت مجموعتان مسـلحتان راديكاليتان بارزتان في الانتفاضة، هما: جبهة النصرة، وكتائـب أحـرار الشـام، وكلتاهما تعتنق مـن دون موارية لغـة الجهاد ودعتا إلى اسـتبدال دولة إسلامية تقوم على المبادئ السلفية بالنظام، ويمكن المجادلة بأن تصاعد البعد المذهبي للصراع كان العامل الأكثر حسمًا وراء انتشار الرؤية الراديكالية.[60]

وفي لبنان باتت النزعة الجهادية في صعود مستمر.[61] وستبقى محاولة إيجاد مساحات أمنية مقابلـة أو قـوى موازنة لحزب الله احتمالًا قويًّا قابلًا للتكرار، كما جرى مع ظاهرة الشـيخ أحمد الأسير في صيدا جنوب لبنان، أو ظاهرة فتح الإسلام في مخيم نهر البارد شمال لبنان، وربما تبرز محاولات أكثر إصرارًا، وبوتيرة أشد؛ بداعي محاربة "الطائفية السياسية" أو هزيمتها.[62]

الخلاصة

خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

1. يشكل البعد الديني أحد محددات السياسة الخارجية الإيرانية، وهو من الركائز الأساسية لشرعية النظام السـياسي الإيراني، لذلك سـيبقى هذا البعد حاضرًا في سلوكها الخارجي، وموجّهًـا لمواقفهـا مـن القضايا الإقليمية، وهـو لا يتصادم مع مصالحهـا القومية؛ بل من الآليات الأنجع لتحقيقها، لذلك ستسـتمر في رسـم سياسـاتها من هذا المنطلق، ولاسيّما تجاه المنطقة العربية.
2. ينطلـق جل حلفـاء إيران في المنطقة العربية من خلفية دينية ممثلـة في الإيمان بولاية الفقيه، وفكـرة الدولـة المهدويـة، وهـو مـا ينطـوي عليه ترابـط عضـوي وتبعية مبـاشرة، يدلل عليهـا اسـتعداد التنظيمات الشِّـيعية إلى الموت في سـبيل تحقيق مـا تعتقده من أفـكار. أما المرجعيات الدينية التي لا تؤمن بنظرية ولاية الفقيه (السيسـتاني) فإنها ليست في مواجهة

مع الجمهورية الإسلامية؛ بل تساندها في مواقفها التي تخدم المجتمع والرؤية الشِّيعية، وتمكينهم السياسي.

3. تراجع العلاقات بين إيران والقوى السُّنّية، وتحديدًا مع الإخوان المسلمين في العالم العربي، وحتى حماس في فلسطين التي وإن حافظت على مستوى من العلاقة إلا أنها لم تبق بالصورة السابقة لـ2011، وخفت جل الأصوات المدافعة عن إيران، وهذا يعني اتساع رقعة الفرز على أسس دينية، وبخاصة مع دخول قوى محايدة إلى ساحة (الصراع)، وإخفاق مشروع التقريب بين المذاهب الإسلامية.

يشكل البعد الديني أحد محددات السياسة الخارجية الإيرانية، وهو من الركائز الأساسية لشرعية النظام السياسي الإيراني، لذلك سيبقى هذا البعد حاضرًا في سلوكها الخارجي، وموجّهًا لمواقفها من القضايا الإقليمية

4. أسهمت مواقف حزب الله الملتزمة بالخط الإيراني والمنحازة إلى الشِّيعة بطريقة فجة (البحرين واليمن)، وتورط الحزب في قمع الانتفاضة الشعبية السورية إلى جانب النظام- في ترسيخ فكرة الأسس "الطائفية" للحزب، وعدم صدقيته في مشروع المقاومة والممانعة للاحتلال الصهيوني.

5. ضعف القوى الشِّيعية المعارضة لولاية الفقيه، وهيمنة إيران على السلطة وحشد القوى الشِّيعية في صفها يمنعان محاولات صياغة مشروع التعايش التي يبذلها بعض القوى التي لا تؤمن بفكرة (الصراع الطائفي).

6. دخول الشيعة في كل الدول العربية في خط المواجهة وتأييدهم سياسات إيران يعززان مخاوف الأنظمة السياسية والقوى الدينية السُّنّية على حد سواء، ويعيق فرص الاندماج الوطني، نظرًا إلى تعارض النظريتين الشِّيعيتين السياسيتين "ولاية الفقيه" و"الانتظار" مع أسس الدولة الوطنية.

7. تدعم إيران القوى الشِّيعية بمختلف الآليات الدينية والسياسية والإعلامية والعسكرية، وبذلك فهي تطيل أمد الصراعات وتعمقها، وقد نتج عن عقد إيران الاتفاق النووي مع الغرب ورفع العقوبات عليها حصولها على موارد اقتصادية أكبر، وهذا يطمئنها ويدفعها إلى مواصلة نفس النهج.

8. يمنح السلوك الطائفي لإيران والقوى الشِّيعية في سوريا والعراق مسوِّغات أكثر للانضمام إلى التنظيمات الدينية السُّنّية المتطرفة، ولاسيّما في ظل تضارب أولويات القوى الإقليمية والدولية التي اتفقت على خطر "تنظيم الدولة الإسلامية" في المنطقة، وأعلنت جميعها الحرب عليه، وبرز في هذا الإطار العديد من التحالفات، غير أن الواقع الميداني يكشف عن هامشية محاربة التنظيم، بل وجعل ذلك غطاءً لتحقيق أهداف أخرى، وهذا ما تجلى في الدور الروسي والإيراني.

الهوامش والمراجع:

1. بغض النظر عن التوظيف السياسي للأحداث لا يمكن نفي قدر من التشابه في الظروف الاجتماعية وحتى السياسية في تونس ومصر وأوضاع إيران قبيل ثورة 1979. وكتاب عالم الاجتماع الإيراني إحسان نراغي "من بلاط الشاه إلى سجون الثورة". يتطرق إلى أوضاع المجتمع الإيراني. وسياسات الشاه الداخلية التي ترتبت عليها حالة مزرية دفعت الشعب للتظاهر ضده والثورة عليه. لتفاصيل أكثر انظر: إحسان نراغي. من بلاط الشاه إلى سجون الثورة.)ترجمة ماري طوق(. بيروت: دار الساقي. ط1. 1999.
2. سعيد الشهابي. من طهران إلى القاهرة: المسار الثوري المتواصل. القدس العربي. 2011/02/08.
3. آرام . 2011/02/04.
4. رشيد يلوح. إيران والثورتان التونسية والمصرية. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2011/04/03. ص04.
5. علي باكير. الثورة السورية في المعادلة الإيرانية–التركية: المأزق الحالي والسيناريوهات المتوقعة. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. يناير 2012. ص02.
6. وضع الباحث الأمريكي من أصل إيراني ولي نصر هذا عنوانًا لكتابه الذي بشّر فيه بدور الشيعة المتزايد في الشرق الأوسط. انظر: ولي نصر. صحوة الشيعة: الصراعات داخل الإسلام وكيف سترسم مستقبل الشرق الأوسط.)ترجمة سامي الكعكي(. بيروت: دار الكتاب العربي. ط1. 2007.
7. لتفصيلات أكثر حول هذه النظرية انظر: مصطفى اللباد. حدائق الأحزان: إيران وولاية الفقيه. القاهرة: دار الشروق. الطبعة3. 2008.
8. أدى التزام الخميني بدعم المستضعفين إلى التفكير في تصدير الثورة الإسلامية اعتمادًا على كل من الحركات الإسلامية والأقليات الشيعية. بوصفها "رسل" الجمهورية الإيرانية لنشر مبادئها التي فيها إنقاذ المستضعفين وخلاصهم. وما شجع على ذلك أخذ الدور الإيراني الإقليمي بعدًا جديدًا يشكل المحدد الديني أحد أهم مرتكزاته في تحقيق طموحاته الإقليمية. وهذا ما يتجلى في الكثير من المناطق التي تشهد صراعات مختلفة في حدتها كالعراق واليمن وسوريا والبحرين. حيث سعت الجمهورية الإسلامية عند صياغة سياستها الإقليمية إلى المزاوجة بين جانبين متباينين من الهوية الإيرانية: القومية الفارسية. والمذهب الشيعي. انظر: راي تقية. إيران الخفية.)ترجمة أيهم الصباغ(. الرياض: مكتبة العبيكان. ط1. 2010. ص107.
9. نفين عبد المنعم مسعد. صنع القرار في إيران والعلاقات العربية الإيرانية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ط2. ديسمبر 2002. ص27.
10. تتضارب الإحصائيات حول عدد الشيعة في المنطقة العربية. وعمومًا نسبتهم تتراوح بين 4.5 إلى 4 في المائة من السكان في سوريا. وبين 48 إلى 50 % في العراق. وقرابة 60% في البحرين. وبين 5 و15% في المملكة العربية السعودية. وبين 5 و25% في الكويت. وبين 20 و30% في لبنان.
11. باقر سلمان النجار. الحركات الدينية في الخليج العربي. بيروت: دار الساقي. ط1. 2007. ص60.
12. غسان الشهابي. حزب الله البحرين: قصة متجذرة شائكة. وحكاية لها بصمات. مجلة المجلة. العدد 1588. أكتوبر 2013. ص20.
13. إيلي فواز. معارك خاسرة: حزب الله ليس حركة مقاومة. مجلة المجلة. العدد 1588. أكتوبر 2013. ص24.
14. رشيد الخيون. 100 عام من الإسلام السياسي بالعراق: الجزء الأول: الشيعة. دبي: مركز المسبار للدراسات والبحوث. ط1. ماي 2011. ص261.
15. سعى بدر الدين الحوثي بعد عودته من إيران التي لجأ إليها بعد حرب 1992 إلى تمكين نجله حسين من قيادة التنظيم الذي تأسس قبل عودتهما إلى اليمن. وكان يسمى آنذاك "تنظيم الشباب المؤمن". وبعد فترة تمكن حسين من إطاحة محمد يحيى عازن أمين عام التنظيم ليكون هو المسؤول الأول فيه. وسار به في مسارات أقرب ما تكون إلى الأدبيات الخمينية منها إلى أدبيات الزيدية التقليدية. وقد كان لإيران دور

بارز في دعم "تنظيم الشباب المؤمن"، ماديًّا وسياسيًّا. وكان للسفارة الإيرانية دور كبير في مدّه بالأطر التنظيمية والمحتوى الفكري والثقافي. بل إنّ شعاره الذي رفعه حسين الحوثي كان ول يزال "الموت لأمريكا، والموت لإسرائيل" ثم إنّ مراسلات بدر الدين الحوثي مع بعض الشخصيات في الحوزات العلمية في إيران تلقي الضوء على طبيعة العلاقة بين الحوثيين وإيران. انظر: محمد جميح، المشهد اليمني بعد سقوط صنعاء، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أكتوبر 2014، ص11.

16. لتفصيلات أكثر حول الموضوع انظر: إبراهيم الهطلاني، الشيعة السعوديون: قراءة تاريخية وسياسية، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط2، 2011، ص220-255.
17. توفيق شومان وآخرون، إيران- مصر: مقاربات مستقبلية، بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط1، 2009، ص389.
18. نفين عبد المنعم مسعد، مرجع سابق، ص27.
19. راي تقية، مرجع سابق، ص235.
20. المرجع نفسه، ص213.
21. رشيد الخيون وآخرون، شيعة العراق: المرجعية والأحزاب، دبي: مركز المسبار للدراسات والبحوث، ط3، سبتمبر 2011، ص102-103.
22. المرجع نفسه، ص104.
23. سركيس أبو زيد، إيران والمشرق العربي: مواجهة أم تعاون؟، بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الإيرانية- العربية، ط1، 2010، ص225.
24. دستور إيران الصادر عام 1979 شاملًا تعديلاته لغاية عام 1989، المادة 12.
25. دستور إيران الصادر عام 1979 شاملًا تعديلاته لغاية عام 1989، المادة 115.
26. مهدي خلجي، لماذا تسكت المرجعيات الشيعية على قتل المسلمين في سورية؟، مركز الشام للبحوث والدراسات، 05/11/ 2012، ص05.
27. المرجع نفسه، ص08.
28. المرجع نفسه، ص05.
29. المرجع نفسه، ص04.
30. سبق الإشارة لمثل هذه المواقف في المحور الأول.
31. لتفصيلات أكثر انظر: علي باكير، مرجع سابق، ص10-11.
32. غسان الشهابي، مرجع سابق، ص21.
33. لتفصيلات أكثر انظر: علي باكير، مرجع سابق، ص10-11.
34. مجموعة الأزمات الدولية، مسارات غير مطروقة: التأمل في تبعات الديناميكيات السورية، مجموعة الأزمات الدولية، الإحاطة رقم 31 حول الشرق الأوسط، نوفمبر 2011، ص04.
35. لتفصيلات أكثر انظر: علي باكير، مرجع سابق، ص11.
36. المرجع نفسه، ص12-13.
37. مركز الشام للبحوث والدراسات، الصراع الجهادي: دور المقامات الشيعية في إشعال فتيل الحرب الطائفية في سورية، مركز الشام للبحوث والدراسات، 2013، ص10.
38. 200 ألف مقاتل إيراني ينتشرون في 5 دول، الخبر الجزائرية، 2016/01/14.
39. مركز الشام للبحوث والدراسات، الصراع الجهادي، 2013، ص09.
40. مركز الشام للبحوث والدراسات، كتائب حزب الله في العراق، مركز الشام للبحوث والدراسات، ب د ت ن، ص04.
41. غسان الشهابي، مرجع سابق، ص21.
42. محمد جميح، مرجع سابق، ص12.
43. عبد الرزاق قسوم، العمل الإسلامي: من التنصير الديني إلى التبشير الطائفي، موقع جمعية العلماء

المسلمين الجزائريين، 2015/11/18.
44. سعيد كسال، التيار السلفي يشن حربًا على معتنقي المذهب الشيعي بالجزائر، الشروق الجزائرية، 90/21/1102.
45. مائيو ليفيت، الوجه الآخر: أنشطة "حزب الله" المشبوهة كشفت عن ميليشيا طائفية، مجلة المجلة، العدد 1588، أكتوبر 2013، ص22.
46. فاضل الربيعي، دور التدخلات الإقليمية في صناعة المسألة الطائفية في العراق، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، يناير 2011، ص10.
47. المرجع نفسه، ص10.
48. شفيق شقير، حدود لبنان تحت المطرقة السورية: تداعيات ومخاطر، الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 10/16/ 2014، ص03.
49. المرجع نفسه، ص22.
50. المرجع السابق، ص03.
51. مجموعة الأزمات الدولية، توازن هش: لبنان والصراع في سوريا، مجموعة الأزمات الدولية، تقرير الشرق الأوسط رقم 132، 11/22/ 2012، صi.
52. مركز الشام للبحوث والدراسات، الصراع الجهادي، ص12.
53. المرجع نفسه، ص12.
54. وحدة تحليل السياسات في المركز العربي، هل تنجح حكومة العبادي في منع انهيار كامل للدولة في العراق؟، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سبتمبر 2014، ص02.
55. حارث حسن، معركة البرلمان: اللعب بأوراق الاستقطاب في الانتخابات العراقية، الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 04/29/ 2014، ص03.
56. وحدة تحليل السياسات في المركز العربي، أهي سياسات المالكي وحساباته الخاطئة أم أنها الدولة الإسلامية في العراق والشام؟، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، جوان 2014، ص07.
57. مركز الشام للبحوث والدراسات، الصراع الجهادي، ص07.
58. المرجع نفسه، ص10.
59. المرجع نفسه، ص11.
60. المرجع نفسه، ص06.
61. مجموعة الأزمات الدولية، حزب الله يتوجه شرقًا نحو سوريا، مجموعة الأزمات الدولية، تقرير الشرق الأوسط رقم 153، 05/27/ 2014، ص18.
62. شفيق شقير، مرجع سابق، ص07.